علي بن صالح الحجي

أسرار الانتصار

بحث يُعنى بالجانب النظري والعملي
للعقائد كموضوع وطريق، وسبل تفعيلها

الطبعة الأولى
٢٠١٤م - ١٤٣٦هـ

أسرار الانتصار

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

أسرار الانتصار

علي صالح الحجي

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤٣٠

الإهداء

إلى قالع باب خيبر..

بقوة ملكوتية، ونفس بنور ربها مستضيئة..

إلى مشعل الانتصارات في كل مجالاتها..

إلى من هو من أحمد كالضوء من الضوء وكالذراع من العضد..

إليك يا أمير المؤمنين..

أهدي هذا اليسير..

علي،

المُقَدِّمَة

منذ زمنٍ وأنا أبحث عن إجابات لكثير من التساؤلات المتعلقة بالتعامل مع المسائل الاعتقادية.

وهل أن التعامل معها على نحو الموضوعية أم على نحو الطريقية، وبمعنى أوضح: هل أن المطلوب فيها هو الإيمان بها دون أي شبهةٍ أو تردد فحسب ؟ أم أنها مقدمة وطريق إلى العمل المقبول ؟ أم أنها أشمل من ذلك ؟

كما لاحظت ازدياد التساؤلات بين أبناء هذا الوسط أو ذاك. وعند من يدرسون العقائد خاصة؛ سواء في الحوزة العلمية أو في مجاميع الشباب أو الوسط الثقافي.

واقتُصِرَ كثيراً في الحوزات على دراسة العقائد في جهتها النظرية، وإثبات تلك المعتقدات بما ينبغي أن يعلم وسمي (بالعقل النظري).

وانطلق أهل التربية من ناحية أخرى في مجالاتهم، فاجتهدوا ما وسعهم، واستفادوا من أنماط التربية في الفكر والسلوك. ولكنه خلا الأكثر منها من تدشين المادة العقائدية وفاعليتها في ذلك.

كما ركزت كتب الأخلاق في الأغلب الأعم على التعريف بالأخلاق وما يحث عليها من خلال الآيات والروايات، وكذا ركزت على النتائج أكثر، وهم بهذا ركزوا على ما ينبغي أن يُعمل، وسمي (بالعقل العملي).

إلا أنهم في الأغلب لم يركزوا على المحرك، وهذا مما يُضعف عنصر الثبات، وكان ـ هنا ـ لابد من عقد ارتباط وثيق بين العقيدة والأخلاق والتربية، بما سَهل عند بعضٍ وصَعُبَ عند آخرين.

ورغم ابداع كثير من أهل العلم في الاهتمام بهذا الربط والتفعيل إلا أن صعوبة الأمر تكمن في تحقيق وتسهيل هذه العناية.

وعليه تأتي هذه الوريقات لتؤلف ما أمكنها بين الجانب النظري والعملي، وتحرك هذه المسألة وتؤكد على الاهتمام بالعقائد كموضوع وكطريق، فإثباتها لازم وتفعيلها مطلوب، وبسطها هو المُؤمن لوصولها.

كما أن هذا المطلب لا يقصر التربية على هذا النمط فحسب، بل يصفّ جنباً إلى جنب مع أنماط التربية الأخَر؛ بيد أني أرى أهميتها أننا أكثر لما بعد مرحلة الناشئة، ومن جهة أخرى فإنها ترمي إلى رفع الحس عند أهل العلم والمربين نحو هذا النمط من التربية الأم.

وهذا يساهم في تحقيق الثبات والارتقاء فيها وبما يحقق الانتصار للنفس حين تسعى بين العقل النظري والعملي، ثم ليتطاول عنقها باحثة عن أسرار الانتصار هذا، ليتحرك فيما هو

أوسع من داخل الذات إلى خارجها، بدءاً من الآثار في النفس، ومن ثم تحرك الآثار فيما هو أوسع، ليتحقق الانتصار للقيم، ومن ثم يؤدي إلى تشكل قوي فيما يترك آثار في أفراد المجتمع.

ولا شك أن ذلك يتطلب الارتكاز على أسس متينة، لابد من إخراجها من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، ومن مرحلة الثبوت إلى مرحلة الإبراز والظهور، ومن حالة الجمود إلى الحركة النشطة، ومن مرحلة الانتصار إلى أسرار هذا الانتصار، فالبحث عن الانتصار مطلب، والبحث عن محركاته مطلب آخر.

أما الطريقة التي اتبعتها فهي تعتمد على انحلال العنوان (أسرار الانتصار) في العناوين الستة القادمة.

وقد بدأت العنوان الأول بشيء عن كيفية التربية بالتوحيد - الأصل الأول للدين -.

ثم انتقلت إلى العنوان الثاني للتأكيد على أهمية الالتفات للجانب التشريعي والفقاهتي، خاصة أن له ارتكازية في عمل وحياة الإنسان والمجتمع، بل في كل شيء.

ومنها التربية، وإلا لن يسلم المتربي والمربي من الوقوع في انتهاج طرق ارتجالية او مبتدعة، أو قد يحصل التجاوز عن الضوابط الشرعية. وإذا غابت هذه الضوابط أثرت على النتائج، خاصة أن النتائج دائماً تتبع أخس المقدمات.

عندما يغيب الانتصار وتتحول النتائج إلى صورة انتصار أو وهْم انتصار ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ الكهف: ١٠٤.

ثم انتقلت إلى مرحلة أوسع طلباً لرشحات ذلك التوحيد، مدعماً ذلك بالسيرة الجدير الاقتداء بها، سواء من الطبقة المعصومة أو العلمائية، ثم ليتسع العنوان أكثر ليبحث عن مدارات الفتوحات، على أن التوحيد هو أعظم منشأ لها، غير أن هذا يحتاج

إلى معرفة الضوابط والأدلة التي تميز بين ما هو فتح أو ليس بفتح، ثم لينفتح المجال خامساً على جانب ربما استوحش منه كثير من الناس، بل حتى من ذكره ـ وأعني هنا قضية اللطف – أو تم التعامل بها مع خلو الحجة، الشاهد الحقيقي الذي يثبته.

وعليه كان اسم اللطيف تبارك وتعالى أقل الأسماء حظاً وحضوراً في عالم الكثيرين، بل كان الاسم أشد مظلومية عند بعض ليؤمنوا به تعبداً، ولكن لا يتعاملون معه عقيدةً وعملا، ليستقر العنوان أخيراً على مدارج الوعي، وما أدراك ما الوعي، بما يضمن الانتصار لهذه القيم أولاً ثم الانتصار بها.

آمل أن تلقى هذه الوريقات قبولاً يساهم في تحقيق الغرض منها.

علي صالح الحجي

الفصل الأول

تربية
السلوك بالتوحيد

تتعدد أنماط التربية وتُبتكر أنماط جديدة، وقد يُغفل عن نمط مهم في التربية، ولا شك أن الخسارة بسبب هذه الغفلة فادحة.

في هذه الجولة محاولة يسيرة لتحريك هذا النمط، خاصة أن الكثير من الناس يتعامل مع التوحيد الأصل الأول للدين من جهة عقائدية فحسب، بحيث أنه لا تتعدى إلى الجانب السلوكي العملي.

علماً أن غاية التوحيد لا تنحصر في العلم والاعتقاد بها، بل أنها أساس حقيقي لكل انطلاقات البناء. ومن هنا تجد الرابط مباشراً في آيات القرآن الكريم والهدي المبارك لخلفاء الله في أرضه؛ والاقتران الأكيد واضح في تحقيق ذلك، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ ﴾ البقرة: ٣.

فالإيمان بالغيب أولاً، ثم العبادة والمعاملة.

وفي مجال تربية النفس قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ محمد: ١٩.

فالعلم والاعتقاد أولاً ثم الاستغفار ورجوع النفس ثانياً، كما لا يخفى أن التركيز على هذا النمط من التربية الأساس له أهمية في مرحلة البقاء، كما هي في مرحلة الحدوث إذ أنه يشكل مثبتاً كبيراً للنفوس، ومانعاً قوياً عن وقوعها في الزيغ، وحافظاً لها عن الابتعاد، ومحوراً يُرجع إليه عند الاختلاف.

إلا أن التعامل بهذا النمط من التربية يحتاج إلى المعرفة في الإلهيات، كما يحتاج إلى التدرج للارتقاء فيها ليسهل ذلك على عموم الناس وليناسب الأفهام على اختلاف مستوياتها.

وعوداً على بدء؛ فإن هدي المعصومين عليهم السلام متركز وبشكل كبير لإثارة هذه الحقائق.

وفيه قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له عن التوحيد: « **أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، كمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له** »[1].

ويقول الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: « **حتى إذا اكتملت فطرتي واعتدلت سريرتي أوجبت على حجتك بأن ألهمتني معرفتك** »[2].

وفي دعاء عرفة أيضاً: « **أنت الذي اشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك حتى لم يحبو سواك** »[3].

ثم قال الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاة الخائفين: « **إلهي نفس أعززتها بتوحيدك كيف تذلها بمهانة هجرانك** »[4].

والنفس العزيزة بالتوحيد هي التي لا تقع في الأمور في

(١) **نهج البلاغة**، ج ١ ص ١٤، شرح الشيخ محمد عبده ـ دار المعرفة.

(٢) **مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.**

(٣) **مفاتيح الجنان، دعاء عرفة.**

(٤) **الصحيفة السجادية**، مناجاة الخائفين.

الأمور التي تتسبب المذلة والمهانة، ولا يُضمن ذلك إلا باستقامة السلوك على جذور قوية، كما أن هذه العزة بالتوحيد لا تتحقق إذا اقتصر على الجانب النظري دون حصول الآثار، وأهمها التخلي من الرذائل، وكذلك التحلي بالفضائل حين يتحقق التفعيل بين المرحلة النظرية والعملية.

نظرة الموحد بعيدة :

ولا شك أن الفارق كبير بين نظرة الموحد لله تعالى ونظرة غير الموحد، كما أن هذه النظرة تستطيل وتتألق بارتقاء الموحد في سلم التوحيد، كما ينعكس في تحديد الوسائل المفعلة عند الموحد فتشكل قائمة ثابتة عند المهتم بالتوحيد، بخلاف الآخر.

ومن هنا عندما يعبر الهداة عليهم السلام عن قضية التربية فإنهم يشيرون إليها بشكل مباشر، فيقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **أدبني ربي فأحسن تأديبي** ».

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: « **الله المؤدب، وأنا مؤدب المؤمنين** »، والواو هنا عاطفة تحقق الطولية: أي تجعل تأديب أمير المؤمنين عليه السلام في طول وامتداد تلك التربية الربانية.

وعلى هذا فإن تربية الله تبارك وتعالى ذات مراتب وليست متواطئة، ولهذا فإن من الشرف والكرم أن يكون تأديب الله تبارك وتعالى بأوليائه عليهم السلام، وهنا أعلى نوع في تربية العبد.

أبو طالب: نموذج رائع:

انطلاقاً من الحقيقة المذكورة لابد أن يكون المربي لنبيه سيد البشر موحداً ومتربياً على التوحيد، وعلى هذا ندرك خطورة القول بكفر أبي طالب عم النبي ومربيه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يمكن أن يكون المربي لسيد الخلق بعيداً عن التوحيد، وقد لا تكتمل الحجة يوم القيامة على المنكرين لبقائهم على الكفر، إذا كان المربي لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم كافراً.

وماذا عن تربية بعض الآباء والأمهات ؟

وهنا قد يطرأ تساؤل أو قد يثار إشكال؛ وهو أن تربية بعض الآباء والأمهات قد لا تحقق التربية بالتوحيد، نظراً لعدم توافرهم على هذه المعاني وعدم الخوض فيها !!

والصحيح أن التربية من الكثير تتحقق بصفتهم مؤمنين؛ إذ تقع في مرحلة العقل العملي غالباً، بل أن الآباء والأمهات في الأجيال السابقة كثيراً ما يمارسون الآداب الشرعية الجميلة، والتي لها أثرها الكبير النافع، وكثير ما كانوا ينشغلون بالذكر والتهليل والتسبيح والصلاة على محمد وآله ـ الذين هم أركان هذا التوحيد ـ، وكم من مرضعة لا ترضع أبنائها إلا وهي على وضوء وعلى اشتغال بالذكر والتوجه الحسن الجميل.

دور العقل النظري والعملي:

للعقل النظري دور الإدراك والعلم وإن كان الإدراك يختلف سعةً وضيقاً.

وفي مراتب العقل النظري مرتبة تسمى العقل المستفاد، وهي درجة عالية يكون الحضور للنفس فيها قوياً، ولا يشغله شاغل، وهذا مما يؤثر بقوة في العمل، لأن الدافع وهذه القوة تكمن في الاعتقاد الراسخ.

وعليه فإن الاعتقاد له دور في التربية بالتوحيد؛ مما يؤدي إلى التحلي بالفعل الحق وترك كل ما هو قبيح.

ولذا فإن المطلوب هنا هو الاعتقاد الإيماني وليس الإدراك أو العلم المجرد من ذلك. فالآية التي تعرف الإنسان بسجود مخلوقاته، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الحج: ١٨، تدفعه لمعرفة عملية هي وجوب السجود.

وكذا الآيـة الكريمـة: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ الرحمن: ٧، هي معرفة نظرية، لكنها تؤدي إلى سلوك عملي تضمنها قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ ﴾ الرحمن: ٨.

وهكذا عندما نتعامل مع التوحيد فـإن المطلـوب فيـه لـيس إدراك ومعرفة صفاته وأسمائه جل وعلا معرفة لفظية نظرية، بـل المطلوب الوصول لمعناها اليقيني، والذي يشكل درجـة عاليـة في العلم، بحيث لا تؤثر عليه شـبهة ولا يداخلـه شـك ولا يعتريـه تردد. وبالتالي فإن أثره كبير في أفعـال وسـلوك الإنسـان، بـل لـه محركيه كبيرة ودائمة عليه.

وعندما يتربى الإنسان على اليقين والنظر لصفة القادر جـل علاه مثلاً، فإنها تدفعه إلى الثقة والتوكل، وعلى هذا فإن الـذكر لله تعالى سيشكل الوقود الذي يجعل النظر إلى الصفة دائـماً، فـاليقين والذكر من أهم العوامل التي يتمكن بها الإنسان من تربية سلوكه بالتوحيد والتحلي به، وبنفس الطريقة يتحقق التخلي عن الرذائل.

ولا يغني هنا تصفية الأفعال الظاهرية فحسب، بل يتعـدى ذلك إلى الجوانح من الفكر والنفس والقلب والروح، لأن العمل على الجوانح هو تربية في الأصول والجذور، وبذلك تظهر الأفعال الجميلة ممتدة من تلك الجذور ومن تلك الأرضية.

انطلاق التربية من الجذور :

التربية لابد أن تنطلق من الجذور، وعـلى هـذا سـنلتفت إلى منشأ من أهم المناشيء وهو التربية للخطرات التي ترد على الذهن وتستقر في القلب، لأن هذه الخطرات هي الأرضـية التـي تتولـد فيها النية، ومن النية يتوكد الإدراك والعمل.

ومن هنا لابد من يتأكـد التركيـز عـلى ضـمان سـلامة هـذه الخواطر من الشـيطان، فـالخواطر الشـيطانية إذا لم يوجـد السـور الحامي لها فقد تقتحم الفكر ، وتكون منشأ للسوء.

وعلى هذا فلابـد مـن معرفـة العوامـل المحققـة والمسـاندة لإملاء الفكر بالخواطر الطيبة، ولا شك أن إشراق نـور الخـواطر

منشأ لنور النيات الذي يدفع إلى العمل الصالح دائماً.

ومن أهم العوامل هو طلب العبد لذلك، وأوضح شاهد على أهمية هذا الطلب هو اختيار الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة المشهود لهكذا طلب.

فلذا دعا في ذلك اليوم فقال: « **اللهم أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري، وباختيارك لي عن اختياري** ». لأن القضية هي قضية الدعم والتسديد الخارجي الذي يرد على العبد بصفة المدبر.

هكذا تتحرك هذه الصفة إلى العبد بعد إيمانه؛ لتصنع حالة عالية من الثقة وكذا التوكل الذي يتحرك به في الأسباب الأخرى.

الإمام الخميني: نموذجٌ رائع:

حيث أن أهل البيت عليهم السلام ركزوا على هذه المنهجية فعلى هداهم سار الموحدون، وتحرك السائرون، وفي السفر التوحيدي للسيد الإمام روح الله الخميني قدس سره دليل على ذلك، ويتبين بالتأمل

في كتبه الـشريفة؛ خاصة في [سر الصلاة] و[الأربعون حديثاً]، فأثرها كبير في بناء القوة وأسرار الانتصار في الـنفس مـن خـلال التوحيد تم امتداده إلى خارجها؛ فالسيد الإمام قد طابق في سِـفْرّه [سر الصلاة] بيّنَ عوالم التوحيد، وفي أفعال الصلاة.

ومن هنا فإن كل صلاة سوف تشكل بناءً جديداً، خاصة أن الصلاة ممارسة تتكرر عدة مـرات بـاليوم، ممـا يسـاعد عـلى هـذا التذكر والتفعيل.

والأربعون حديثاً له أهمية أكبر باعتباره يهتم بإزالة الحجـب من مناشئها، ويعالجها بالتوحيد.

فعلى سبيل المثال: عندما يعالج آفات النفس كالعجب فهـو يربي الإنسان على النظر إلى الله تعالى قبل النظر إلى النفس، وأن ما يتحقق للنفس إنما هو عطاءٌ من الله تبارك وتعالى، فينحصر النظـر إلى الله تعالى دون المزاحمة بالنظر إلى المزاحم الداخلي، وهـو حـب الذات، لذا أثار ذلك بالسؤال، فقال في ختام الحديث الثالث عـن [العجب]: « **اسالوا قلوبكم هل تبحث عن الله أم تريـد ذاتهـا ؟**

هل هي موحدة وتطلب الواحد أم مـشركة وتعبد اثنين »[1].

فهو بهذا يحـصر النظـر إلى الله تعـالى دون الـذات، ويعمـق الإرادة بحيث تبدأ من الله تعـالى، وبهـذا يبعـد المتعلـق الـداخلي، ويتبقى التعلق به تبارك وتعالى، وفي ذلك النجاة.

وحين يعالج الرياء كذلك، فهو يركز على النظر إلى الله تعالى ومعرفته وتمجيده دون سواه، ممـا يتولـد مـن ذلـك الاخـلاص، عندها يقصر نظره على ذلك ولا ينظر إلى المتعلـق الخـارجي، لأن الرياء فرع النظـر إلى المتعلـق الخـارجي غـير الله تبـارك وتعـالى، وبانعدام التعلق ينعدم تأثير المزاحم، ويسهل التعلق بعز القدس.

لذا نجده يبين لاستئصال جذور الرياء فيقـول: « **تـذكر أن قلوب العباد هي تحت تصرفه وبين قدرته وفي قبضة سـلطانه، ولا يتصرف أحد في قلوب العباد دون أذنه.**

(١) **الحديث الثالث**: الأربعون حديثاً، ص٨٢.

إذا أيها العزيز.. اطلب السمعة والذكر الحسن من الله، فيجعلك محبوباً ويعظم مكانتك في القلوب »[1].

هكذا كانت منهجيته لتعميق الأثر من خلال العقل النظري إلى العملي، ثم يشير إلى الأمور الشرعية الظاهرية ليتم الغرض.

التوبة ضرورة لإزالة الموانع :

من الجدير ذكره هنا أن يلتفت إلى قضية الإرادة وتوجيهها، هذا من أصول وأسس الحركة السليمة، ولذا لابد من مراجعة أي مؤثر على نفس الإرادة حتى تتحقق السلامة، وعلى هذا فإن معرفة المقدمات التي تؤثر على الإرادة تشكل قاعدة لها أثر ضروري، وهذا ما كشفه الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء التوبة.

وتستمر التربية في المواصلة لإزاحة الموانع، فلا يكفي في التربية الاهتمام بالمقتضي وتفعيله إذ لابد من إزالة الموانع بما يتعلق بالخواطر والإرادة، وفي دعاء التوبة للإمام زين العابدين عليه السلام

(١) الحديث الثاني: الأربعون حديثاً، ص٥٠.

يتأكد من هذه التربية، فيقول عليه السلام: « **اللهم وإني أتوب إليك من كل ما خالف إرادتك، أو زال عن محبتك من خطرات قلبي ولحظات عيني وحكايات لساني توبةً تسلم بها كل جارحة على حيالها من تبعاتك** »[1].

وهكذا فإن التخلية – اعتماد على الأسس التوحيدية – تنتقل من مرحلة إلى أخرى بما يؤدي إلى تخليه باطن وسر العبد من كل تعلق وغير ذلك، مما هو أوسع، إذ ينعكس في علاقاته، حيث تنتظم علاقاتهم وتترتب أولوياتهم. فلا يتعلقون إلا بمن يوصلهم إلى التوحيد.

كما لا يودعون في منطقة السر، ولا يختارون لذلك إلا من يجدونه أهلاً لذلك من أهل العناية بالتوحيد، مقتدين في ذلك بسيد الأوصياء أمير المؤمنين عليه السلام، ناظرين إلى سيرته وأصحابه الذين حرصوا على الاستفادة منه، وهو كذلك إذ جعلهم أهلاً لذلك، ورباهم على هكذا مستويات؛ ومن هؤلاء: كميل بن زياد

---

(١) **الصحيفة السجادية**، دعاء التوبة.

النخعي، ورشيد الهجري، وميثم بن يحيى التمار.

ومن ثمرات تصفية الباطن هو التحلي بالصفات والفضائل على الأساس ذاته، لكن لا يخفى أن هذا يحتاج إلى معرفة، كما يحتاج إلى نوع من القرب من العلماء والذين يتحلون بهذه الصفات.

من هنا ركّز إمامنا زين العابدين عليه السلام في دعاء أبي حمزة ليرسم لنا دعامة قوية تؤكد هذه الصلة بهؤلاء حين قال: « **أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني** »[1].

وهذا يتلاءم كثيراً مع طلب العزة بالتوحيد، كما مر في بداية المطلب؛ بل أنه يبرز هدفاً أكبر لن يتعثر المربي فيه، ولن يتوانى المتربي عن طلبه وهو طلب الحياة النورانية.

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء أبي حمزة الثمالي.

التوحيد طريق إلى الحياة النورانية :

ربما استوحش بعض من الناس من هكذا طلب، ووضعوا أمامهم العقبات تلو العقبات، وهذه نتيجة طبيعية، يفرضها عدم التعامل بهذا اللون من التربية.

بيدَ أن طلب هذه النتيجة له محركاته الواضحة، وقد تبين أن هذا هو من أهم نتائج ارتباط الاعتقاد بالسلوك.

أما طلب هذه الحياة فقد رُكز عليه في الدعاء الجليل الذي يعقب زيارة آل يس للإمام الحجة عليه السلام ؛ وفيه: « **اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد نبي رحمتك، وكلمة نورك أن تملأ قلبي نور اليقين، وصدري نور الإيمان ..فكري نور النيات، وعزمي نور العلم، وقوتي نور العمل، ولساني نور صدق، وديني نور البصائر من عندك، وسمعي نور الحكمة، وبصري نور الضياء، ومودتي نور الموالاة لمحمد وآله عليهم السلام، حتى ألقاك وقد وفيتُ بعهدك وميثاقك، فتغشيني رحمتك** »[1].

(١) **مفاتيح الجنان**، الدعاء عقيب زيارة آل يس.

هذا هو المطلب الحي، لأن العبد يمكن أن يصدق في أقواله، لكنها قد تكون خالية من نور التوحيد فأثرها قليل، وقد يكون مفكراً، لكن فاقد لنور النيات.

وقد يملك عزماً وقاداً، لكن ليس على هدى نور العلم، وقد يكون قوياً في بدنه؛ لكن فاقد لنور عمله، فلا يبصر حتى في نفسه كمن قال: إنما أوتيته على علم عندي، فهو بعيد عن منطق أهل النور، وفاقد للاتصال بالمصدر، وهذا انفصال تام بين العقل النظري والعملي، وبين التوحيد والسلوك.

نموذج أعلى لظهور الاعتقاد في السلوك :

ليس هناك أبلغ وأروع من كلمة أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه لقلعه باب خيبر، والتي تبين هذا الظهور بنسبةٍ تامة حين قال: « **والله ما قلعت باب خيبر، ودكدكت حصن يهود بقوى جسمانية، بل بقوة إلهية** »[1].

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ٢ ص ٣١٦.

وقال (عليه السلام): « **والله ما قلعت باب خيبر ورميت به خلف ظهري أربعين ذراعاً بقوة جسدية، ولا حركة غذائية؛ لكني أُيدتُ بقوةٍ ملكوتية، ونفسٍ بنور ربها مستضيئة** »[1].

فهو (عليه السلام) لم ينسب قلع الباب ورميه لقوته الجسدية، مع أنه فِعلٌ قد ظهر للعيان، بل وأرعب اليهود بهذا، وحقق الانتصار.

بل أشار الإمام هنا إلى المصدر، وهو نور التوحيد، وهذا هو الذي يرعب اليهود وغيرهم، حتى لو كان من فئة قليلة السلاح.

وعوداً على بدء؛ فإن مثل هذا النموذج لتجلي نور التوحيد في النفس ثم إلى الجوارح والجوانح، إذ يظهر في البصر بنور الضياء، وفي السمع بنور الحكمة، وفي الفكر بنور النيات، وفي القلب بنور اليقين، وفي الصدر بنور الإيمان، وفي العزم بنور العلم، وفي القوة بنور العمل، وفي الدين بنور البصائر.

وبهذا تتشكل المنهجية، وتتضح الآلية؛ ليقول العبد كما أمره

(١) **الآمالي للصدوق**، ص ٦٤ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

الله تعـــالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف: ١٠٨.

وقد انتفى الــشرك في الأمـر الكـلي، وفي التفاصـيل، وفي الحركة؛ لأنها تعبأت بنور التوحيد، وهذا أعلى مصداقٍ في التولي، والموالاة حينما يَكون مصدر المودة، هو نور المـوالاة لمحمد وآله عليهم السلام.

ولا بد هنا من التمييز بين الموالاة و نور المـوالاة؛ فـالموالاة: فعل من المكلف، أما نور الموالاة: فهو إشراقٌ منطلق إليه، يـضيء له ويملؤه من أقصاه إلى أقصاه.

ماذا بعد طلب الحياة النورانية ؟

حتماً إذا تحققت هذه النتيجة واستقر هذا الطلب؛ فإنها تولد مطلباً آخر، وهو أن المتربي بالتوحيد سيطمع أن تكون هذه التربية على يد الأولياء، الذين أشرقت الأنوار في قلوبهم، بل قد يطمع لأن تكون على يد من « خلقهم الله أنواراً »[1] عليهم السلام، وإن كان الوصول إلى ذلك ليس سهلا.

المطلب الغائب :

وقد يتعاظم الأمر لتحقيق غاية من غايات الباري جل وعلا، ومع بالغ الأسف هو مطلب غائب عن كثير من العباد، وهو أن يطلب أن يكون من القوم الذين يأتي بهم الله تعالى، ليحبهم ويحبونه.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ

(١) انظر الزيارة الجامعة : فقرة: (خلقكم الله أنوارا).

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: ٥٤.

بل من الشرف كل الشرف أن يتصاعد الفكر والقصد إلى هكذا مطلب؛ لأن الباري هو القادر المطلق، وقد تكفل بأن يأتي بمثل هكذا قوم من أجل هكذا علاقة.

وكم جدير هذا المطلب بالتأمل الطويل، فما أعظمه وما أخطره ! إذ أن الآية تلفت الأنظار إلى حقيقة إبقاء هكذا علاقة لدرجة أن الباري عز شأنه قد آلى على ذاته المقدسة أن يوفر هكذا محبوبين محبين، حينما يتقاعس العباد عن هكذا طلب.

إن صنع هذه الغاية هو الذي شيب الحبيب المصطفى ﷺ ليوجدها ويؤكدها، ومثل هذه الغاية هي التي أحزنت وصيه علي بن أبي طالب عليه السلام ، حتى صار يلطم مراراً على صدره، وإلى آخر لحظات حياته الشريفة وهو يردد: « **إن لههنا لعلماً جماً لو أصبتُ لهُ حمله** ».

حتماً هو يلطم لعدم وجود أو قلة القاصدين، للتحقق بما يوصل إلى عالم التوحيد، ومتعلقاته، وآثاره.

ولا شك أن العلم الذي يطلب له حمله، ليس هو علم الفقه هنا. فأمير المؤمنين عليه السلام لا ينتظر أن يُطلب لبيان الأحكام، كما أنه ليس علم الفلك بمجراته، وليس شكل السماوات بتشكلاته؛ بقرينة قوله: « **سلوني عن طرق السموات أنا أعلم بها من طرق الأرض** »[1].

وبقرينة اهتمامه عليه السلام وهو في ساحة المعركة في مواجهة الباطل ـ في معركة الجمل ـ حيث أن أعرابياً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول إن الله واحد؟!

قال: فحمل الناس عليه، وقالوا: يا أعرابي أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تَقَسّم القلب!! فقال أمير المؤمنين عليه السلام: دعوه فإن الذي يريده الأعرابي، هو الذي نريده من القوم، ثم قال: يا

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ١٠٨.

أعرابي إن القول في أن الله واحد، على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان، ووجهان يثبتان فيه[1].

والخلاصة هنا: أن أمير المؤمنين عليه السلام قد اهتم حتى بالتفصيل، وهو في ذلك الموقف العصيب، وفي هذا دلالة قاطعة على أهمية هذه المطالب، والاهتمام بتفعيلها وتسهيلها ما أمكن، سيراً على خطاه صلوات الله عليه وسلامه.

نتائج للتحقق بالتوحيد :

إن الآثار والنتائج كثيرة وكبيرة ولا يمكن استقصاؤها، وسنشير إلى بعضها من خلال الهدي المبارك؛ فبعضها النجاة في الأخرة، وأخرى القرب والعافية في الدين والدنيا، ومما ورد في بيان ذلك:

١. ما ورد في دعاء كميل بن زياد: « **أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك ساجدة، وعلى قلوبٍ اعترفت بآلهيتك محققة** ».

---

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء كميل.

٢. ما ورد في دعاء المشلول، الذي علمه أمير المؤمنين عليه السلام للشاب المشلول، الذي أخذ بذنبه لظلم والده، وقد أدى إلى شفائه، وخلاصه، وفيه: « **يا جاري اللصيق، يا ركني الوثيق، يا إلهي بالتحقيق، يا رب البيت العتيق. فكني من حلق المضيق، واصرف عني كل هم وغم وضيق** ».

٣. وثالثها في دعاء عرفة: « **إلهي حققني بحقائق أهل القرب** ».

٤. في مناجاة الخائفين: « **وضمير انعقد على محبتك، كيف تحرقه بحرارة نيرانك** » .

وهنا نتيجة مهمة مترتبة على التحقق، وهي أن الله تعالى إذا اجتبى عبداً فإنما يجتبيه لتوحيده، وتفعيل ذلك التوحيد، والتربية على أساسه، بدءا من الفقهاء وغيرهم.

ولذا عقدنا في هذا الفصل لإثارة وإشعال هذه الغاية، وهذه المطالب، وهذا التحرك، والله المعين.

الفصل الثاني

أسرار الانتصار
بين الفقه والتوحيد

الله تبارك وتعالى هو المربي والمعلم العالم بما كان قبل أن يكون، وهذا ما يدعو إلى التدبر والتأمل والتقصي الشديد للحقائق التي تحملها آيات كتابه الكريم.

وسننطلق في رحاب هذه الآية التي تحمل ما تحمل بما يتعلق بموضوعنا: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ٣١.

فقد علمه كل الأسماء للأشياء من الموجودات، ثم جاء بالضمير [هم] الذي يدل على العاقل.

وعليه: فهو يشير إلى ذوات حقيقية مشار إليها، وهي موجودة في عالم العقول، ومثلها تماماً عندما قال يوسف عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ يوسف: ٤.

فالدلالة الأولى: للصور، أما الثانية في: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾، فهي تشير إلى هذه الحقائق، فما الذي يناسب هذه القضية ؟!

إذ أن المعلم هو الله تبارك وتعالى، فماذا سيعلم التلميذ آدم عليه السلام ؟ وهل يُعقل أن يعلم آدم الموجودات الظاهرة من سماء وأرض وأشجار وأنهار؟! ولا يعلمه بأسماء سيده المصطفى وآله صفوة التوحيد وأهله!

كما أن الباري تعالى وهو المربي على العدالة وحفظ الحقوق، أَوليس من أوليات حقوق هذا التلميذ أن يعرفه بسر التوحيد الأول صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يعلمه الأخرى من المسميات ؟

كما لا يعقل أن يبقى آدم عليه السلام في دائرة العقل النظري وهو الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، والكلمات إنما يكون لها الأثر حين تتحرك في دائرة العقل العملي، وحصول الأثر كاشف عن واقع.

وبمعنى أوضح: نجد العلم متعلقاً بالأمور الظاهرية تارةً وبالأمور الواقعية تارةً أخرى، وما في عالم الثبوت يبرز في عالم الإثبات والظهور؛ غاية ما هنالك أن إخراج هذه الواقعيات يتم وفق معادلات دقيقة؛ ليتحقق الغرض من ذلك، وكما أنها تحتاج إلى القابل المناسب الذي يُقدر ما يكشف من الواقعيات، والغرض الذي أريد من ذلك والحكمة التي يسترشد بها.

من هذا المنطلق ينطلق النبي محمد ﷺ، وهو السر الأكبر من الله تبارك وتعالى ـ معلماً ومربياً ـ وفق حركة دقيقة أيضاً، سواء في إبرازه للتشريعات العامة، والأحكام ـ وهذا ما تكفل به الفقه وهو مجاله ـ، أو في تعامله بالواقعيات الخاصة، وهذه ليس مجالها مجالاً شاملاً، وإنما مجالها التوحيد على أساس الحصة غير الواجبة، وإلا فإن القدر اللازم من الاعتقاد شامل، وشأنه شأن الأحكام الشرعية.

إلا أن المعرفة لا تتوقف عند حد معين، ولذا لم تجعل لازمة على كل الناس.

ومن هنا فإن المعلمين والمربين عليها وإليها يختارون لها من يناسب غرضها، وعليه: نجد أن أصحاب سر رسول الله ﷺ: حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر؛ وهما مؤهلان لذلك.

فلذا أطلع عماراً من العلم المصون، فقال: « **يا عمار، تقتلك الفئة الباغية** »[1]، وليجعله ضابطة – أيضاً – يميز بها معسكر الحق عن معسكر الباطل.

استمرار هذه المنهجية:

وتمتد هذه المنهجية الكبرى من خلال التلميذ الأول لرسول الله ﷺ، فمن الطبيعي أن يعلمه من تلك الحقائق والواقعيات، لأنه هو الذي يقضي دينه.

وبقدر أيسر يمتد أمير المؤمنين عليه السلام ليختار هو الآخر من يقدرها ويفعلها في أفق الزمان.

---

(١) **الاحتجاج**، ج ١ ص ٢٦٦.

ولم يقتصر اهتمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في الجهة العملية، بل يؤكده إذ يجعل هذه الحقائق محط النظر والتركيز، فنجده يقسم بالله تعالى ـ إنه لقسمٌ لو تعلمون عظيم ـ إنما أراده لبيان هذه الحقائق.

ومثال ذلك: حين أقسم لبيان حقيقة قلعه للباب، بما مر آنفاً. إلا أننا سنؤكد من خلال المثال لتعلقه بالمطلب.

فهنا ظاهر، وهنا واقع، وبمعنى آخر: فإن الأمر في ظاهره قد تجلى للناس والأجيال وقد اتضح بنسبة عالية.

أما الحقيقة التوحيدية المتجلية فيه فلا بد أن يبرزها (عليه السلام)، فلذا قال: « **فو الله ما قلعت باب خيبر ورميت به أربعين ذراعاً خلف ظهري بقوة جسدية ولا بحركة غذائية، لكني أُيدت بقوةٍ ملكوتية ونفس بنور ربها مستضيئة** ».

قد يُستغرب من نفي أمير المؤمنين (عليه السلام) لما ظهر على يده، لأن المتبادر إلى الأذهان أن العامل المقتضي لقلع الباب، هو هذه القوة الظاهرة، إلا أنه فيما نرى أن هذا من قبيل نفي الخضر (عليه السلام)، لفعله

في قضية الجدار الذي أقامه، فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ الكهف: ٨٢، فنفي إرادته تأدباً ونسب الفعل إلى الله تبارك وتعالى؛ وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام نفى قوته الجسمانية؛ لينسب ذلك إلى القوة الملكوتية، والنفس المستضيئة بنور ربها .

بل ـ وهو المعلم ـ يريد أن يربي الآخرين على هكذا حقائق، وهكذا أسلوب، وأن لا ينظر الإنسان إلى قوته وإلى ذاته منفصلةً عن المصدر الأساس.

وعليه: فإن سر القوة والانتصار، لابد أن يكون منطلقاً من مصدره، وكل من يتربى على هكذا حقائق، فهو متصل ومُحقق للظفر والفتوحات، عاجلةً أو آجله.

السيد الإمام الخميني في امتداد المسيرة:

وهنا سننطلق إلى نموذج فريد من العلماء الأبرار، قد امتد في هذه المسيرة وهذه المنهجية، وقد تربى على التوحيد وعرف الطريق إلى أسراره، وربى به ما أمكنه، فكان نصيبه الفتح والانتصارات.

فالسيد روح الله الإمام الخميني عالم جليل ومرجع كبير للتقليد، وفاتح موفق.

وقد أشرت في الفصل الأول إلى بعض أسفاره الميمونة، وهنا أؤكد من هذه الحيثية؛ ففي كتاب (سر الصلاة) نجده يربي المصلي على كيفية الاتصال بالتوحيد وعوالمه من خلال الصلاة[1].

---

(١) تقابل بين أفعال الصلاة ومراتب التوحيد، ففي القيام مثلاً يركز على التوحيد الأفعالي باسم الهادي بـ ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الفاتحة: ٦، وهي تؤدي إلى اليقظة، وإلى التوحيد الصفاتي في سورة التوحيد، وعلى التوحيد الأسمائي باسم العظيم في الركوع، وإلى التوحيد الذاتي في عالم التوحيد باسم الأعلى في السجود، فالمصلي متحرك في ذلك من خلال أفعال وأقوال الصلاة.

وكذلك حين يعالج الرذائل والموانع والحجب، أو يجمع الفضائل بالتوحيد، فهو لا يكتفي بالطرق الظاهرية مما هو في رسالته العملية، أو كتب الآداب الظاهرية، وإنما يركز على الواقعية والمعنوية.

ولذا أفرد كتاب « الآداب المعنوية للصلاة » لتسهيل ذلك، خاصة أن الأمور الواقعية تمس واقع الذات وليس فعل المكلف فحسب، بل وكان يلاحق الحجب ويصحح العلل والمساوئ بما يتناسب ومستويات الناس.

وأما اختياري لهذا النموذج الرائع فليس إلا لأنه مشعل للانتصارات ومحققها على أساسين متينين.

- **فالأول**: بصفته فقيهاً جامعاً للشرائط، إذ يؤسس الأحكام الشرعية باستنباطها، فيعمل بها ليَصُحَ العمل.
- **والثاني**: بصفته عارفاً من العرفاء، فهو في جانبه التوحيدي يصحح الذات بأسرها.

وعلى هذا؛ فإن الحاجة ضرورية للفقه والتوحيد، وأن الانتصارات خاصة أو عامة تحتاج إلى هاتين الجهتين.

بين الفقه والتوحيد:

ولنبسط القضية أكثر، فإن الحاجة للجانبين تتناسب مع مجالهما وموضوعهما فهما يجتمعان تارةً ويفترقان تارةً أخرى.

فأما جهة الاجتماع أنهما ضروريان للمكلف، وأما جهة الافتراق حينما يتميّز كل علم منهما بميزاته الخاصة.

والحاجة إلى ذلك تكمن في ترتيب بعض الأولويات من ناحية، ولئلا يحصل الخلط من ناحية أخرى، كما أن هناك بصفة عامة دور للفقه في مجال « العقائد » والعكس كذلك.

أهم الفوارق بين الفقه والتوحيد :

إن موضوع الحكم الفقهي بالنسبة للمكلف محدود، وأما الآخر غير محدود، فالحكم في فعل المكلف واجب، أو مستحب، أو مكروه، أو مستحب، أو مباح.

فلا (يترقي) المستحب إلى (الواجب)، إلا من حيث اشتداد إرادة فعل المولى في الواجب، لكنهما حكمان متغايران.

ولا يتعدى من ذلك إلا في موارد، كالاحتياط الوجوبي يمكن الرجوع إلى فقيه آخر، أو بتعدد الفرصة في موضوع الحكم، كما في مورد التخيير.

والنتيجة أن موضوع الفقه محدود من ناحية المكلف.

أما موضوع التوحيد فهو غير محدود ومفهومه مشكك، أي أنه مستمر في مراتبه ومتصاعد إلى غاياته، فالمعرفة والارتباط بصفة القوي لله تبارك وتعالى مثلاً ليست واحدة وآثارها بالغة، فمستوى القوة مثلاً في أمير المؤمنين عليه السلام أعلى منها في سيد

الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه، ونسبتها في الحمزة أعلى منها في المختار الثقفي وهكذا.

وهذا يعتمد على مستوى التحقق بصفات التوحيد والاتصال بالله المطلق اللامحدود عز وجل.

وعلى هذا يمكننا الإضافة لما سبق، في تحليل قلع أمير المؤمنين عليه السلام لباب خيبر، وعدم حصره الفعل في ظاهره، لأن الكاشف والدليل عن حقيقة علي عليه السلام، ليس هو الظاهر، حيث أن الفعل قد تحقق، وتم قلع الباب، لكن اتصال نفس علي عليه السلام بنور ربها باقٍ مستمر، كما أن الانحصار في الفعل الظاهري يعني الوقوع في المحدودية، والمراد هو الانطلاق فيما هو أوسع.

كما لا يستغنى عما يصحح ويحقق ارتقاء الذات وهو التوحيد.

لماذا التركيز على الفقه أكثر ؟

لاشك أن العلماء توجهوا بطاقاتهم إلى ما يحقق ظاهر العمل وضمان صحته، فبذل الفقهاء وسعهم في ذلك، وكان هذا الجهد في هذا المجال أكثر لضرورة تأمين الأحكام الشرعية للناس.

وعليه كان معنى التقليد هو العمل بفتاوى الفقيه الذي يرجع إليه المكلف، ولم يجعل التقليد في العقائد أو غيرها إلا بما لزم فيها الحكم الشرعي؛ مثل: عدم جواز انكار النص القطعي مثلاً، المتعلق بالعقائد أو الفكر.

وعلى ذلك لم تجعل الضابطة في الأعلمية متعلقة بالتوحيد والعقائد أو غيرها من العلوم إلا بما هو لازم، وإنما جعلت متعلقة بالأساس - أي الأصول والفقه، وفيما يتعلق بالاستنباط كالتفسير.

الأمر الأخر بعد بيان استمرار الارتباط وأن العبد يريد تحقيق الأصح في العمل والأحسن، والأحسنية مطلب متمم، لابد أن يمتد في عمر الإنسان كله.

ولذا قال الإمام زين العابدين (عليه السلام) في دعاء أبي حمزة: « **اللهم اجعلني ممن أطلت عمره وحسنت عمله** »[1].

وقال (عليه السلام) في دعاء مكارم الأخلاق ـ ما يفيد معنىً خطيراً : « **واجعل عمري بذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان؛ فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ، أو يستحكم غضبك عليَّ** »[2].

وعلى أنه يكره تمني الموت إلا أن الإمام يؤكد على حقيقة لزوم البقاء في دائرة الطاعة والقرب؛ ولأن الخروج منها سبب في أن يكون عمر الإنسان مرتعاً للشيطان، مع أن الشيطان محدود ومؤثراته محدودة وضعيفة، لكنها تنشط بضعف إرادة الإنسان، وبقاء الإنسان في هذه الدائرة المحدودة تعني أن موته خير من حياته.

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) دعاء مكارم الأخلاق.

وعوداً على بدء؛ كم هي جميلة بعض عبارات العلماء وإرشاداتهم، التي تؤكد وتعمق هذه الحركة للمكلف نحو الفقه والتوحيد، سواء في التوجه للعلم والمعرفة أو النماذج الحية.

ولعل الكلمة المشهورة للسيد محمد باقر الصدر تعمق ذلك أكثر حين قال: « **ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام** ».

ولا شك أن مفردة الذوبان تؤكد على أن الارتباط لابد أن يكون في مرحلة متقدمة فيما يتعلق بالظاهر والباطن، إلا أن هذه القضية لابد أن تخضع للضوابط العلمية.

وحتى لا يحصل الخلط فإن الذوبان هنا لا يعني تجاوز بعض الضوابط، كما أشرنا في ترتب مسألة الأعلمية.

فمن يرجع إلى السيد الإمام الخميني مثلاً لابد أن يكون معتمداً على الأخذ بأعلميته فيما يتعلق بالفقاهة، وليس الأعلمية في مجال المعارف الإلهية والتوحيد.

وعلى هذا فإن السيد الشهيد محمد باقر لا يجوز أن يفتي لمقلديه بأن يعدلوا عن تقليده بحجة كلمة « **ذوبوا** »، فهو على هذا يريد منهم أن يذوبوا فيه بصفته الأخلاقية والرسالية والتوحيدية.

الفصل الثالث

أسرار الانتصار
بين رشحات التوحيد

« كان لي فيما مضى أخٌ في الله، وكان يعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه »(١).

هكذا يقرر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام دستورا جميلاً للأجيال في صياغة وصنع الأخوة في إطار التوحيد، ويضع الدليل بالدلالة الإلتزامية ـ كما سيتبين ـ؛ لأن صغر الدنيا نتيجة للنظر إلى العالم الآخر وعظمته.

وأول ما يلفتُ النظر في هذا النص الرائع: هو افتخار أمير المؤمنين عليه السلام بهذه الأخوة والتحدث عن هويتها، وكم تتوق النفوس لمعرفة هوية هذا الأخ الذي حظي بهذه الأخوة ؟!

---

(١) نهج البلاغة.

وكما يبدو ـ والله أعلم ـ أن المعني ممن رحل قبله بدلالة: « **كان لي فيما مضى** »، فهل هو مالك الأشتر ؟ أم عمار بن ياسر؟ أم غيرهما، « **وإن كان الأرجح أنه عثمان بن مضمون** ».

وأما اللفتة الثانية: فهي المكانة الرهيبة المجعولة بعبارة: « **وكان يعظمه في عيني** »، وهذه لفتة عجيبة وكريمة، في حين أن كثيراً من أفراد الدنيا يطمح لأن تكون له مكانة جيدة مهما كانت النسبة، وكم من أفراد أمة الإمام الحجة عليه السلام يبحث بأن يكون على الأقل في عين الإمام، أو يحظى بنظرة منه ودعاء.

والمطلب هنا يوافق تعامل الإمام عليه السلام في بيان العوامل التي تجعله عظيماً في أعينهم عليهم السلام .

إلا أن هذا النص الشريف يفتح أملاً جديداً في الطلب، وهو أمر ممكن، وإن كان ليس سهلاً، ثم يبين الإمام عليه السلام العلة التي تحقق ذلك - وهي صغر الدنيا في عينيه -، أي أن مستوى نظرة هذا الإنسان إلى الدنيا بأي حجم، وبأي كيفية ؟

عندما يكون النظر إلى الدنيا بنحو الموضوعية :

أغلب أهل الدنيا يرونها كبيرة؛ لأن نظرهم إليها على نحو الموضوعية، فهي موضوعهم وغايتهم، والمطلوب أن يكون النظر إليها بنحو الطريقية، بحيث تكون وسيلة للوصول إلى الغاية، واستثمارها كمركبٍ يؤنس تارة، ويُحزن أخرى؛ ليوصل إلى المقصد.

وأما من يتربى على التوحيد، فهو يركز في تربية نظره حتى يتحقق التجافي عن دار الغرور، وعدم التعلق بها، حتى لو ملك الكثير من حطام الدنيا.

فأهل التوحيد هم الذين تصاغرت دائرة الدنيا في أعينهم، وتصاغرت حتى انطوت في نقطة الصفر ومن المعلوم أن الصفر لوحده لا يشكل قيمة، ولا يشكل رسمه عائقاً، فلا يشكل حجاباً ـ إلا أننا نريد أن نؤكد على أنه ـ وحتى مع هذه النظرة لا يعني أن الدنيا ليس لها وجوداً حقيقياً، كما ذهبت إليه طائفة، فقالوا: بأن وجودها اعتباري أو موهوم، بل أن لها وجود حقيقي

خارجي، إلا أن التعبير عنها بالصفر هو الأنسب في نظرنا، خاصة وأن الصفر أقل رسماً حتى من الأعداد السلبية التي دون الصفر.

كيف تصبح الدنيا صغيرة في الأعين؟

إن لموقع الإنسان - بالنسبة للدنيا - دور في ذلك، فمن هو واقعٌ في زخرفها ولذّاتها، لا يمكن أن يراها على حقيقتها؛ لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: « **فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة، ومرقت طائفة، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى:** ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص: ٨٣، **بلى قد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وزانهم زبرجها** »[١].

وفي الوقت ذاته أراد آخرون الخروج من دائرتها فهربوا بعيداً عنها، كأشبه ما يكون براكب الطائرة كلما ازداد علواً في الفضاء كلما صغرت الدنيا في عينيه، ولم تعد تحجبه عن الانطلاق

(١) نهج البلاغة.

حتى يرتفع عنها فيصل إلى موقع لم يكد يراها.

وهذا ما أراده أمير المؤمنين عليه السلام بالملازمة، فوضوح عـالم الله تعالى وعظمته، هو الذي يجعل الدنيا صغيرة.

كيف يمكن تحقيق هذه المرتبة ؟

جزماً لابد من التحرك نحو هكذا غاية خصوصاً أن الغالب هو ميل النفـوس إلى الحجـب، والمفـروض هـو الميـل إلى خـرق الحجب لا إليها، بل وصل الأمر ببعضهم عندما حجبتهُ وزاحمتـهُ أن يفكر في الانتحار بقتل نفسه للخلاص من ذلك !

ومن المعروف أن هذا الأمر متكثر في الفئـات البعيـدة عـن الآيات بالله وقدرته سبحانه.

وهذا من أخطر النتائج المترتبة على ذلك، وعـلى البُعـد عـن التوحيد وأهله، إذ لا يجد هؤلاء ملاذاً يركنون إليه، أو جهة يثقون بقدرتها في نجاتهم.

ورغم ثقة أولئك بالدنيا، إلا أنها لم تخلصهم فازدادوا ضيقاً وضنكا، فانحدر تفكيرهم إلى التخلص من جهتهم فأقدموا على الانتحار، أو وقعوا في اليأس والإحباط.

وهذا هو شأن كل من يجعل ثقته واعتماده على أمرٍ محدود، وذي قدرة محدودة، ولا يتصل بالمطلق اللامحدود، القادر والمفيض لهذه القدرة.

وعلى هذا، فإن خرق حجاب المحدود هو الذي يمكن من الاتصال باللامحدود، فمن رأى الدنيا كبيرة سيصعب عليه خرقها، أو حتى التفكير في ذلك.

ولذا عبر القرآن عن الدنيا كما يراها هؤلاء بالجبل، ومع ذلك فإن دُّك هذا الجبل أمر ممكن، وذلك بالارتباط بالقرآن وآياته، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الحشر: ٢١.

على أن مفهوم الجبل غير منحصرة مصاديقه في الدنيا، فهناك جبل النفس، فالقرآن بظاهره له الأثر –، فبظاهره تتصدع الجبال، وبحقيقته يصدع ما يخفى من حجب أمام الإنسان، وعلى هذا فأعظم وسيلة هو (القرآن)، لتحقيق الغرض، بل ربما يتحقق الأثر بسورة، كسورة التوحيد عندما يتحقق الإنسان بها.

والسبب أنها من عالم اللامحدود، عالم التوحيد، وهو مهيمن على العالم المحدود، عالم المادة والطبيعة.

دور المعصومين في رفع المرتبة:

وكما أن القرآن العامل الأول، فالنبي وعترته يمثلون المقتضي الآخر، ولا بد من الاعتقاد بهذا المقتضي، ولا بد من التحرك إلى هؤلاء الذوات المعصومة.

ولا يمكن الانكفاء على القرآن فحسب، فهما مكملان لبعضهما في تحقيق الآثار، بما يتناسب مع أصناف الناس في حركتهم نحو الغاية.

والحركة مع القرآن وإليه والأخذ به ضرورة، ليكون فاعلاً وأما أهل البيت عليهم السلام فهم يشتركون مع القرآن الكريم في الغرض الأول لمن يقبل عليهم، مع إضافة في دورهم - لأنهم القرآن الناطق.

وعلى هذا انقسم الناس إلى مريدٍ وإلى مراد، فهم يواصلون الدور للمقبلين خاصة، وعلى هذا انقسم الناس إلى مريد وإلى مرادٍ مجذوب، ولهذا اتخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخاً و وزيراً، يقضي دينه وينجز وعده.

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام مشيراً إلى هذا الموقع « **وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل، ولا يرقى إلي الطير** »[1].

وعوداً على بدء؛ ومن خلال النص الشريف: « **كان لي فيما مضى أخ في الله..** » كان قد اتخذه أمير المؤمنين عليه السلام أخاً، ويا له من

(١) نهج البلاغة.

تعبير خطير ودقيق !! إذ لم يُعرّف باسمه، وإنـما عـرف بالصـفة، والتعريف بالصفة هو الذي يحطم الحجاب الذي يمنع من المواصلة بحجة خصوصية المورد.

وبمعنى أوضح؛ أن الإمام عليه السلام قد اتخذ هذا الأخ وعظّمـه؛ بسبب وجود هذه الصفة، إذ أن الدنيا أصبحت صغيرة في عينيـه، ولأنها صغيرة لم تحجب نظره عن النقاط الأخرى غير المحـدودة، وسيمتد هذا الأخ بامتداد الخط المنطلق في عمود الزمـان ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الفاتحة: ٦ .

وبهذا فإن طلب الهداية للصراط المستقيم، لا يصح أن (تُـقتصر) على طلب المسائل الشرعية، والأحكام وغير ذلك، بـل لا بـد أن تنتهي إلى خط التوحيد ومعالمه وأهله، هذا الخط الناطق الذي من صفته، التوليد لمجالات أوسع.

هكذا نقترب من فهم كلمة أمـير المـؤمنين عليه السلام لكميـل بـن زياد، حين ألح عليه بطلب الحقيقـة، فقـال لـه: « **ولكـن يرشـح**

عليك ما يطفح مني ».

وأوضح دليل على ذلك هو كلمة أمير المؤمنين عليه السلام : « **علمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب** »، وجهة الإفاضة هي الألَفَ باب المودعة في سرّ علي عليه السلام .

وأما المترشح منه هو ما يتعلق بالتوحيد، بما يتناسب مع قابليات الآخرين؛ لذا لم يواصل الإمام عليه السلام إجاباته حين قال: « **أطفئ السراج، فقد طلع الصبح** »[1]، أي إلى هنا تتناسب قابليات كميل.

---

(١) سأل كميل أمير المؤمنين عليه السلام يوما وقال له : يا أمير المؤمنين ما الحقيقة ؟

قال عليه السلام : مالك والحقيقة ؟ قال : أولست صاحب سرك ؟

قال عليه السلام : بلى ولكن يرشح عليك ما يطفح مني ؟

قال: أمثلك يخيب سائلا ؟

فقال عليه السلام : الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.

قال كميل: زدني بيانا.

قال عليه السلام : محو الموهوم وصحو المعلوم. قال: زدني بيانا..

قال عليه السلام : هتك الستر لغلبة السر.

قال: زدني بيانا.

قال عليه السلام : جذب الأحدية لصفة التوحيد. قال: زدني بيانا..

قال عليه السلام : نور أشرق من صبح الأزل يضيء على هياكل التوحيد آثاره. >>>

متى قالها أمير المؤمنين ؏ ؟

وأما متى قالها أمير المؤمنين ؏ ؟ فقد قالها حين أخذ كميلاً معه في لقاء خاص، وفي درس أوحدي بعد أن طلب كميل ذلك، وألح في طلبه، ولو كان السؤال عن حكم شرعي في عبادة أو معاملة فإن الإمام؏ لن يقول: « **ما لك وللمسألة ؟!** »، كما قالها عندما سأل عن الحقيقة « **ما لك وللحقيقة ؟** » .

وهكذا والحال هذه لم يقتصر أمير المؤمنين ؏ على كميل، فاختار أمناء على ذلك؛ لتتكثر امتدادات الخط المستقيم الممتدة من قطب الرحى، وعلى هذا ستزداد مجالات الانتصار من خلال التوحيد وأهله.

وكل منتمٍ لهذا الامتداد سيكون قريباً من هذه النتائج، ومصدراً للانتصارات، وقد يكون مركزاً مشعلاً لذلك.

<<< قال: زدني بيانا..

قال: أطفئ السراج؛ فقد طلع الصبح.

نخلة ميثم التمار من أسرار الانتصار:

إن تلك النخلة التي صلب عليها، وقد كان يتعاهدها بالرعاية والسقاء أصبحت مركزاً مشعاً حظي به المختار الثقفي ببركاتها ما حظي به، فحقق الانتصار، وانتقم من أعداء الله تعالى ومن أعداء أهل التوحيد، ثم كان قريباً من محراب الفوز بعد مماته.

وعلى هذا.. فإن ما يترشح من علي عليه السلام هو موقد وسر من أسرار الانتصارات المتواصلة.

النتيجة الأخيرة :

إنه لا بد من أن يكون الأفراد على قدر من الوعي لتحقيق الانتصار بأي مدى، بدءاً من انتصار النفس في جهادها ـ وهو الجهاد الأكبر ـ، أو فيما هو أوسع منه في المجتمع، وكذا في العلاقات بالارتباط بمحورٍ غير محدود؛ لأن الانغلاق عن غاية التوحيد تجعله يقف عند نقطة من النقاط.

ولذا.. فالأخذ من الحقائق وتفعيلها هو المطلوب، وليس الاقتصار على حالة التعامل في الأمور المحدودة، وأؤكد على شاهد من خلال اقتداء المسلمين وتعاملهم.

وقد ورد استفادة المسلمين من الترشح الحسي عندما يأخذون من ماءِ وضوء رسول الله ﷺ.

فأغلبهم لم يمتد في اللامحدود، ولو حرصوا على الأخذ فيما يضع ذواتهم من الحقائق لأصبحوا مركزاً للبركة مما يجعل نفوسهم هادية بشكل دائم لكل من يتصل بهم.

ومهما كان المثال جميلاً ويؤكد العمق في صلتهم برسول الله ﷺ إلا أن بقاءه في المحدود يمنع الاستفادة التامة بما يناسب المتعلق به ﷺ.

قد أكد المصطفى ﷺ ذلك حين قال لعلي عليه السلام قبل تحقيق الانتصار في خيبر: « **فَوَ اللهِ لَئِنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ** »، كل ذلك تأكيد منه على أن

هداية فرد واحد أعظم من حمر النعم، بل أعظم مما طلعت عليه الشمس، وليس ذاك إلا لارتباط الغاية والفعل باللا محدود، إذ لا يصح أن تساوي المحدود مهما بلغ بالأمر باللا محدود.

الفصل الرابع

أسرار الانتصار
في طلب الفتوحات

حتماً هنا لا نقصر العنوان على الفتوحات التي تكون في هـو النفس أو في المجتمع، بل أوسع من ذلك مـا دامـت الـنفس غـير منفصلة عن خالقها اللامحدود في ذاته وفي عطائه تبـارك وتعـالى، كذلك فإن الآثار مطلوب ظهورها في النفوس والمجتمع.

مشكلة كبيرة:

ولعلنا نعاني مـن مشـكلة كبـيرة، عنـدما يحصـل شيء مـن الفصل بين ما يجري من فتوحـات محسوسـة في عـالم المـادة وبـين أصل الفتوحات، ولا شك بأن مثل هـذا قـد أدى إلى تفـاوت في المستوى، سواء على مستوى النظرة أو على مستوى التعـرف أكثـر على مصدر الفتوحات، ولا يشعر بخطورة هذه المشـكلة إلا رواد الحقائق والقريبون منها.

كما أن هذا التفاوت هو أحد العوامل المؤدية إلى تكثّر الآراء والاتجاهات والتيارات؛ مما أضعف التوجه عند بعض، كما أثـر في الرؤى عند آخرين، حتـى أن الـبعض يـرى أن الحـديث في هـذه الموضـوعات [اسـتغراق مفـرط] وأن الحاجـة لتطـوير وتنـوير المجتمعات فقط في التركيز التام على مجالات التطـوير في الـذات، وهندسـة الحيـاة، وفي علـم الـنفس، وعلـم الاجـتماع، وتطـوير المجتمع، كذلك بمواكبة التيارات العالمية بما يفيد في الغرض.

وازدادت البرامج في علوم وفنون أخرى؛ كالبرمجة العصبية اللغوية وغيرها، مما سيأتي أكثر مع مرور الأيام.

وما أجمل الاهتمامات هذه، إلا أنه لابد من الالتفات بـأن لا تتحول الحركة بحيث أنها ترتكز على مرتكزات أحادية تتجسد في هياكل حداثية، فيما إذا بنيت بعيدة عن هياكل التوحيد.

وعلى هذا ظل أهل التوحيد في همٍّ دائم خوفاً مـن هجـران هذا الأصل، وامتدوا في الهمّ المقدس الذي صدح بـه الهـداة عليهم السلام،

حتى قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **إن لههنا لعلماً جمّاً، لو أخبرتكم به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي السحيقة** »[1].

وكان عليه السلام يطلب كثيراً ويحثهم على السؤال: « **سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السموات أنا أعلم بها من طرق الأرض** »[2].

الربط : [هو الهمُّ المتجدد] :

وظلت قضية الربط هي الهم المتجدد لشد الناس إلى واقع الأمر، ولتعزيز الفطرة بنظرة راقية لا يُفقد فيها الاتصال الحقيقي العملي بالتوحيد، وذلك بسبب مقتضيات التطورات ومجرياتها، ولا ننفي الفائدة من تلك حتى مع عدم الالتفات، إلا أن الاحتمال في واقع الأفراد الذين غابوا عن هذا الأصل باقٍ في الواقع.

وهذه المسألة قد ألفت النظر إليها الإمام الحسين عليه السلام ، في

(١) نهج البلاغة.
(٢) بحار الأنوار، ج ٣٩ ص ١٠٨ .

دعاء عرفة حين قال عليه السلام: « **ماذا وجد من فقدك** »، والحل يكمن في الربط بين الجانبين بما يناسب مستوى الأفراد.

من واقع التوحيد إلى واقع الحياة:

ومن هنا فإن جولتنا هذه ليست إلا لتحقيق هذا الغرض من واقع التوحيد إلى واقع الحياة، وعلى هذا فإن ما يظهر من انتصارات وله سر وواقع يُسَيِّره، واستقصاء هذه الأسرار يقتضي تتبع النماذج الرائعة التي حققت الارتباط لتظهر النتائج على أساسٍ متين.

رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام أصل الفتوحات:

وعوداً على بدء؛ إلى النموذج الأروع نعرفه من خلال كلمته المدهشة، ويالها من كلمة !! حين قال أمير المؤمنين عليه السلام: « **علمني رسول الله ألف باب يُفتح لي من كل باب ألف باب..** »؛ لنصل إلى الحقيقة من جوانب متعددة.

في اللغة :

[**يُفْتَح**]: فعل مضارع مبني للمجهول وهذا يفيد أمرين:

- الأول: الاستمرار في الفتح.
- الثاني: من حيث الموضوع نفسه، فهو غير معلوم مداه ولا يمكن الإحاطة به، وهذا يتناسب بما يتعلق باللامحدود.

في الرياضيات:

فإن معنى [**يُفْتَح**]: يساوي الاستمرار، على طريقة المتوالية الهندسية، والجامع هنا بين اللغة والرياضيات هو عدم التوقف.

في علم الأصول:

إن اللفظ [**يُفْتَح**]: غير مقيد بحد أو أي نوع من أنواع القيود، فيكون الإطلاق هو المتعين، ولأن الإطلاق على الأشهر هو رفض القيود.

على ذلك فالفتح مستمر بل يتسع؛ لأنه على طريقة المتوالية الهندسية؛ لأن كل باب يفتح منه ويستمر الفتح من الأبواب الجديدة، وهكذا تتجلى الحقيقة من خلال الرواية مدعمة بهذه العلوم الجديدة. وما من شك أن رفضها هو نسف لهذه الأسس والعلوم.

كما أن هذا النص يدعم من نصوص أخرى، ففي دعاء الندبة مثلاً ورد: « **وعلمهُ علم ما كان وما يكون إلى انقضاء خلقه، ثم أودعه علمه وحكمته..** »، وقال: « **أنا مدينة العلم وعلي بابها** ».

فأي علم هذا الذي كان لعلي عليه السلام وما مجاله؟ وما مداه؟ وما آثاره؟ وهل يمكن أن يكون محصوراً في مجال معين؟

فلو قيل هو علم الفلك مثلاً، فسنقع في مشكلة عدم التناسب مع هذا الفتح، لأن مجال الفلك رغم اتساعه إلا أن دائرته محصورة بالدنيا.

ولو قيل هو علم الفقه، فسنقع في مشكلة أخرى، لأن عطاء أمير المؤمنين عليه السلام للعلماء والناس سيكون محصوراً ومحدوداً؛ لأن مجال الفقه لا يقبل فيه إلا الحسي، وليس الحدسي؛ ولأن المكاشفة وضروبها لا تقبل من خلال هذا الطريق.

وعليه فإن مجال هذا العلم شامل وليس محصوراً في مجال واحد؛ وخصوصاً عند من يكون متعلقاً.

ولذا حاول أمير المؤمنين عليه السلام أن يودع منه وفي جهات متعددة، لكن أغلب أهل الدنيا لم يستوعبوا هذه الأبواب؛ لأنها غير محدودة؛ إلا أن محاولات علي عليه السلام لابدّ أن تسفر عن نتائج، بل هو اختار لحملها فأتى بقوم يحبهم ويحبونه وأودعهم شيئاً من ذلك.

الفتوحات تحكمها الضوابط:

إن هذه الفتوحات متنوعة وشاملة، سواء أدى بعضها إلى ظهوره في الواقع العسكري للدفاع عن حريم، وبيضة الإسلام، أو ظهر في مدارج العلم التي تقرب إلى الله أو المنعكس منه في الحياة.

إلا أن أهم ما يلفت النظر إليه أن هذه الفتوحات إنما تتحقق وفق ضوابط، وليس كل ما يدعى حقيقياً.

فبعضه ادعاء، وبعضه تلبيس، وقد يقع بعضه في أسوأ من ذلك، وقد يستغل الأمر من قبل أصحاب ذوي الخرافات أو المصالح.

وانتشار مثل هذه الأمور في بعض الأحيان من أحد الأسباب التي تؤثر سلبا على الفتوحات الحقيقية، فترفض أحيانا أو تصنف ضمن النماذج التي لا حجية لها ولا أثر.

فقضية الفتوحات ليس من الصحيح أن ترفض من حيث المفهوم، ولذا فإن الخلط في التعامل بين المفهومُ والمصداق، بما يؤدي إلى نقض المفهوم غير صحيح، واعتماد كل مصداق غير صحيح أيضاً.

وللتمييز في ذلك لابد من معرفة الشواهد التي تؤكد ذاك المصداق، ولهذا فإن قضية المختار الثقفي أكدتها الشواهد الخارجية حين تحققت وتُأكد إخبار ميثم للمختار الثقفي تأكد بالشاهد الخارجي.

وأما من الجهة العلمية فهنالك قرائن علمية ووجدانية تؤكد ما صدر عن بعض أهل الفتوحات، كابن سينا الشيخ الرئيس، أو صدر المتألهين الشيرازي، أو السيد الشهيد محمد باقر الصدر.

وإذا ما تتبعت سيرة هؤلاء الأعلام فسيتضح اهتمام هؤلاء بالجانب الارتباطي من حيث المبدأ والحركة.

لذا كان ابن سينا يتضرع إلى الله تعالى للتوفيق للعلم، وكذا

كان السيد الشهيد يؤول ويلجأ إلى حضرة أمير المؤمنين عليه السلام وهو القائل: « **ما استعصت علي مسألة في حرم أمير المؤمنين عليه السلام** »[1].

والسيد الشهيد محمد باقر الصدر حين قال ما استعصت علي مسألة لم يحدد نوع المسألة، وقد أطلق هذا التعبير، فهل هي مسألة فلسفية ؟ أم فقهية؟ أم أصولية؟

فما هو مقتضى الحال هنا ؟

ليست القضية هنا أن تكون متعلقة بهذا العلم أو ذاك، فإن الإلهام العلمي والفتح في الفكر له ضوابطه، فلو كان في قضية عقلية أو أصولية فإنه لا يجوز الأخذ به لعدم حجية الإلهام، ولا يصح اعتباره دليلاً، إلا أن نؤمن بأن آثار نور المعرفة الإلهية يشكل وقوداً خفياً؛ يفتح نور الضياء، أو أن نقول بأن المسائل المقصودة إنما هي في طريق التوحيد، أو نقول بإمكان الأمرين، هو الأرجح في رأي كاتب هذه الوريقات؛ لأن نور العلم هو الساري هنا.

---

(١) شهيد الأمة وشهيدها.

وقد سمعت عبارة لطيفة وأنا في حضرة أمير المؤمنين عليه السلام من عالم جليل، هو السيد عادل العلوي، إذ كان حديثه في بيان مقدمات الفتوحات العلمية ونور العلم، فقال: كان السيد الشهيد الصدر يزور الأمير ثم يجلس متأملا متفكراً، ثم يقول: « **علمني يا أمير المؤمنين** ».

إن كل ما عند السيد الشهيد من توفيقات إنما هو منطلق من أعتاب علي عليه السلام .

وعلى هذا يمكننا أن نفهم شيئا من كلمة مشعل الانتصارات الآخر، حين قال: « **كل ما عندنا من عاشوراء** »، فالسيد الإمام روح الله الخميني أعلى الله مقامه عبر هنا بأداة العموم [كل] تأكيداً واستزادة في البيان؛ لأن عطاء عاشوراء لا يمكن أن يكون محدوداً، وعاشوراء من أعظم الفتوحات، ولذا عبر عن ذلك الإمام الحسين عليه السلام :« **من لم يلحق بنا لم يدرك الفتح** ».

ماذا عن النّـهَضَات في العالم ؟

لا يعني نقاشنا وما فيه من نتائج وما فيه من تأكيـد عـلى مسـألة الربط، نفي حصول فتوحات ونهضات عند غير المسـلمين، أو حتـى غير الدينيين؛ لأن هذه تلتقي مع حصة من الحصص في هذا المجال.

فمثلاً كل شعب يطالب بالحقوق الإنسانية ويجاهد من أجلهـا، فإنه يوفق لحصة من تلك الفتوحات والانتصارات بأي نسبة.

ولكـن هنـاك فروقـاً كبـيرة في ذلـك، سـواءً في المقاومـات الشعبية أو العسكرية أو الحركة العلمية؛ فالمقاومات الشعبية مـن كل مظلوم ستحظى بفتح بحوله تعالى، فهم عباد الله تعالى، لكـن الحظ أوفر حين يكون الشعب مسلماً أو مؤمناً.

وكذلك في الفـتح العلمـي كـما هـو في النظريـات العلميـة فأصلها من الله تعالى ولا شيء ينفصل عن الله تبارك وتعالى، لكن المشكلة تكمن في انفصالها عن العقل العملي، ولذا تستغل أحيانـاً في تدمير العالم وظلم الشعوب.

آثار في ذات المنتصر :

وهناك ثمرة أخرى في المقابل تظهر على وجه الخصوص في ذات المنتصر، حينما يكون قريبا من التوحيد لله تعالى، لئلا يقع في مغبة الغرور العلمي أو النفسي.

ولهذه الاعتبارات فإننا نرفض بعض ما نراه من المفكرين الحداثيين أو غيرهم، مثل [أدونيس] الذي قال في مقابلة تلفازية: « أن نجاح الثورات الشعبية له عوامل من أهمها: أن لا يكون الناهض دينياً »[1].

كما أننا نرفض السلوك العملي الخاطئ الذي لا يلازم هذه الفتوحات، فقد يوفق بعض للفتوحات العلمية، ولكنه يفشل في جانب التربية، وأبرز هؤلاء عالم الفيزياء [آينشتاين] الذي لم يكن يهتم بنظافته الشخصية، كما أنه ترك ابنه المعاق في دور الرعاية، دون اهتمام، إضافة لصرف جائزة اكتشافه ليطلب من زوجته أن تطلقه.

---

(١) حوار في قناة دبي الثقافية.

الفصل الخامس

أسرار الانتصار
على ذراع اللطف

هـنا سـنتحرك إلى أسرار الانتصار على ذراع اللطف، بدءاً من الآية الشريفة : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٠٣.

عندما نتأمل جيـداً في هـذه الآيـة وغيرهـا ممـا تحمـل اسـم اللطيف، فقد تتضح بعض الحقائق التي قد تخفـى عـلى كثـير مـن الناس، فباسم اللطيف نتوكل ليسهل الوقوف عليها، وبـدءاً مـن الوقوف على مفهوم الإدراك.

يقـول أهـل التربيـة: لا تقولـوا في أهـدافكم في العمليـة التعليمية أن يدرك الطالب معنى الذرة مثلاً، بل قولوا: أن يعرف الطالب معنى الذرة، فـالتعبير الأول لا يضـمن تحقـق النتيجـة، وليس له ضابطة تحدده، كما أن الإدراك هو أول مراتب المعرفة.

وكلامهم هذا جميل في بابه.

أما إدراك الباري كما في الآية الشريفة فهو يختلف مفهوماً ومصداقا، فهو تبارك وتعالى المحيط بالأبصار، وبكل شيء وهو اللطيف الخبير؛ أي أن هناك أموراً دقيقة وخفية لابد أن تتحركوا لمعرفتها والوصول إليها.

وهذا ردٌ على بعض من يكررون هذه العبارة: مالكم وقضية الألطاف ؟ ولم لا تخاطبون الناس على قدر عقولهم ؟ وما يناسبهم ؟ ولم لا تتعاملون مع الأمور بواقعية ؟

وتترتب على مثل هذه الأطروحات أن بقيت قضية اللطف مظلومة وبقي اسم [اللطيف] من الأسماء التي يدعى بها كثيراً من جهة التعبد، وابتعد الكثير من جهة الاعتقاد بها والوصول إلى آثارها.

من هذا المنطلق.. لابد من الانتصار لهذا الاسم، وللأسماء في عالم التوحيد، وقد يكون التعبير هنا غريبا أو جريئاً؛ لأن المرتكز في موضوعنا أكثر هو [الانتصار بالتوحيد]، أما هنا فغايتنا [الانتصار للتوحيد].

الانتصار للتوحيد :

الانتصار للشيء يختلف عن الانتصار بالـشيء، ولذا ورد في أدعية شهر رمضان: « **واجعلني ممن تنتصر به لدينك** »، فالمطلـب هنا الانتصار للدين، وهو غير الانتصار بالدين، ومثلـه الانتصـار للحق والانتصار بالحق، وكـذلك الانتصـار للطـف والانتصـار باللطف.

وقضية الانتصـار للـشيء متعديـة بـاللام، وأمـا الأخـرى متعدية بالباء، والثانية مترتبة على الأولى؛ فإذا هجر اسمُ اللطيـف كيف سيُتعامل به ؟

وعلى هذا تعرف خطورة مـن يـدعو أو يضـعف الالتفـات لمثل هذه القضية !!

وقد يشكل قاطع طريق شعر بذلك أم خفـي عليـه، بـل أن بعضهم قد يتحسس من طرح الألفاظ المعبرة عن اللطف، وربما يُعذر بعض هؤلاء بسبب عدم التمكن من رسم الصلة بين اللطف وآثاره.

وظن آخرون على من يطرحون هذا المفهوم وهذا الاسم إنما لجعل ذلك حجة لترك الأسباب.. وهكذا.

ولذا غاياتنا في هذا الفصل فك هذه العُقد ونـزع الحجـب؛ ليكون الطريق سهلاً للإيمان بهذه القضية والعمل من أجلها.

أي الأعمال أفضل ؟

وعلى ما سبق يتأكد مُجدداً أن أفضل الأعمال هي التي تـزيح الحجب، خاصة عن التوحيد وعالمه وما يتعلق به، وعن كـل أمـرٍ ضروري، ومنها قضية اللطف.

حيث أن بعض هذه المراتب ظاهر، وبعضها غير ظاهر وهو الذي يمثل حصة اللطف.

وسيتبين ذلك مـن خـلال مثـال يتعلـق بمراتـب التعامـل الاجتماعي.

مراتب التعامل الاجتماعي :

لكي نبين التعامل باللطف هنا لابد أن نشير إلى بعض المراتب الأخرى مع بيان شواهدها و كواشفها وضوابطها قدر الإمكان.

فالتعامل بالحق هو المرتبة اللازمة والظاهرة، ثم التعامل بالإحسان في مرتبة ثانية، وهذا قد يظهر وقد يخفيه المحسن، إلا أن اطلاق الإحسان على أهله يقتضي فيه الظهور.

ثم ينتهي الأمر إلى التعامل باللطف في مرتبة ثالثة، وهذه غالبة غير ظاهرة وأحياناً تظهر بعد حين.

ولذا تارة يعبر عن ظهوره، وأخرى عن خفائه ففي دعاء الجوشن الكبير: « **يا من لطفه ظاهر..** »، وفي أدعية أخرى: « **يا خفي الألطاف** » و« **يامن لطفه خفي، وأياديه باسطة لا تنقضي..** ».

وعلى هذا فهو ثابت ومتحقق في مرحلة الثبوت والجعل حين يتوفر القصد، وأخرى يقع في مرحلة الإثبات والظهور حين تبرز آثاره، وإخراجه من تلك المرحلة يحتاج إلى عوامل.

وحينما يتم إخراجه يتضح مصداقاً من مصاديق الانتصار للطف، وبتشبيه أوضح، حين يخرج السيف من غمده فهو انتصار للسيف، وهو أمر سابق لمرحلة الانتصار بالسيف.

الانتصار للطف دور تأسيسي :

سنبين ونعرف للمراتب الثلاث من خلال الأمثلة التالية:

١. لإقامة الحدود الشرعية مثلا لابد وأن تكون ظاهرة: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ النور: ٢.

٢. حين قال أمير المؤمنين لابن الإمام الحسن عليهما السلام يوصيه: « **إذا أنا متُّ، فضربة بضربة** »، فهذا في مرتبة التعامل بالحق.

واختلف تعامله عليه السلام بعد أن ضربه ابن ملجم وقُبِضَ عليه، فقال: « **اسقوه مما تشربون** ».

وأما تعامله على مرتبة اللطف حين تعامل على أساس أمور خفية ومنح رحمة باطنة حين قال ﵇ : « **لا تنظروا إليه** »، أي أنه يراعي مشاعر ابن ملجم المرادي [قاتله].

- فالتعامل الأول: منطلق من اسم [الحق] تبارك وتعالى، فهو في مرتبة الحق.
- والتعامل الثاني: منطلق من اسم [المحسن] تبارك وتعالى، فهو في مرتبة الإحسان.
- والتعامل الثالث: منطلق من اسم [اللطيف] تبارك وتعالى، وهو في مرتبة اللطف.

وهذه المنهجية يحتاجها كل أفراد المجتمع، لما لها من دور كبير في « إنشاء العارفة وستر العائبة، ولين العريكة وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة وترك التعيير، والإفضال غير المستحق ».

فالتعامل بالحق والعدل واجب لكن لا ينبغي الاقتصار على ذلك، ومن الحسن نشر هذا التطلع وهذه الثقافة، بل لابد من الترقي لأن يكون التعامل على أساس اللطف والدعوة إليه، وحين يكثر التطبيق والتحقق بهذه المراتب فإن ذلك سيساهم بشكل فاعل في رقي المجتمع، وتسامح أفراده، وخروج المجتمع بذلك من الضيق، بل تجاوز للطائفية.

عهد الإمام أمير المؤمنين لمالك الأشتر:

أمير المؤمنين يربي الأمة على مرتبة اللطف؛ فمن أروع النماذج والأمثلة هو عهد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر حين ولاه على مصر راعياً وحاكماً.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: « **وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً، يغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق** »[1].

وأما الدلالة من خلال النص فواضحة من حث أمير المؤمنين عليه السلام على التعامل على المراتب الثلاث.

فأما الأولى: بالحق والعدل فتوضح من خلال نهيه المولوي: « **ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً يغتنم أكلهم** ».

وأما الثانية: فمن خلال: « **وأشعر قلبك الرحمة للرعية** ».

---

(١) نهج البلاغة..

وأما الثالثة: فمن خلال: « **واللطف بهم** ».

فلا تكتفي يا مالك بتعاملك بالحق والعدالة، بل تحرك على سبيل الرحمة واللطف ما يمكنك لتصلح ما فسد في دينهم وسلوكهم، فأنت الممثل والسفير.

ثم قال: « **فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق** ».

هكذا هي أبعاد علي عليه السلام ، يريد من مالك أن يخطط حتى يصل باللطف، والتخطيط الذكي لكل الرعية، بغض النظر عن انتمائهم في ديانتهم أو مذاهبهم، بل أن أمير المؤمنين عليه السلام ركز بصريح العبارة فتجاوز بذلك المذهبية، لتتضح من خلال: « **الأخوة في الدين** ».

وأما تجاوز الديانة فواضح من خلال: « **أو نظير لك في الخلق** ».

الصديق يوسف يبرز المنهجية:

وهذه المنهجية قد ظهرت قبلاً في الهداة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومن هؤلاء: الصديق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحبي السجن، وقد أقبلوا عليه بصفته من المحسنين فقالا: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يوسف: ٣٦، وغايتهما الحصول على علم يبين لهما مفاد الرؤيا التي رآها كل منهما، إلا أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تعامل معهما على أساس مرتبة اللطف، إذ أنه انتقل بهما من مطلبهم إلى مطلب آخر قد خفي عليهما، ولم يتوقعاه أبدا، إذ دعاهما إلى الله وإلى التوحيد، وشدهما إلى ذلك بأسلوب غايةً في الروعة والإبداع، وقد حقق هذه الغاية الكبرى في إنقاذهما.

وهكذا فإن هذه التعاملات تشد النظائر من الخلق ولها أثـر كبير على من تتوفر لديهم مقدمات ولو بسيطة، فتؤدي إلى إقبـالهم بما يحقق الصلاح من ناحية، ويحقق الانتصار من ناحية أخرى على

الصعيد الاجتماعي.

فإن أعظم انتصار في المجتمع ـ في نظري القاصر ـ ليس هو انتصار فئة على أخرى، وإنما دفع المجتمع، لأن ينطلق في احتواء أكبر قدرٍ ممكن من الفئات الأخرى.

وهذا لا يكون إلا بمعرفة الأدوار التأسيسية، وسيتبين في ذلك من خلال قضية ضرورية لتحقيق أكبر قدر ممكن من النتائج، وهي قضية التبديل، واعظم آلياتها الوعي.

الفصل السادس

أسرار الانتصار
على
مدارج الوعي

قد ينطلق الإنسان على مدارج العلم والثقافة، ويصبح ذا قيمة وإفادة للآخرين، ولكن مالم يصل إلى مدارج الوعي، فقد يتعثر وصوله إلى أسرار الانتصار، ولهذا قال الباري تعالى: ﴿ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ﴾ الحاقة: ١٢.

ولم يقل أذن عالمة، وعلى ذلك فإن عنصر الوعي هو الذي يضمن الوصول إلى الحقائق، وهو أساس لتحقق مراتب العقل العملي، وبالحقائق تكون الانتصارات في الفكر وما يترتب عليها فيما هو لازم أو محبوب أو كمالي.

وعلى هذا الأساس سأركز على أهمية الوعي في الأمور التأسيسية خاصة، وفي مفاتيح الكمال، مع الإشارة إلى بعض التفصيلات في بعض التطبيقات.

وحسب منهجيتنا سننطلق في رحاب صفةٍ من صفات الباري تبارك وتعالى، وهي مناسبة لغاية التغيير و التطوير.

بل إن التحرك من خلال هذه الصفة، يعد تأسيساً ضخماً في الحياة الاجتماعية، خاصة فيما إذا وعى الأفراد أو جلهم التعامل بمقتضى ذلك.

صفة التبديل مطلبها جميل :

القرآن الكريم أبرز هذه الصفة وآثارها، ومن ذلك:

١. قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ ﴾الفرقان: ٧٠، وسيأتي البيان في ذلك موسعاً.

٢. قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ فصلت: ٣٤.

هكذا هو الهدي المبارك من الله تبارك وتعالى، وعلى هداه يواصل المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وقد وضع الإمام زين العابدين علي بن الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ دستوراً شاملاً؛ ليضع المجتمع على أساس هذه القيم

العظمى، في دعاء مكارم الأخلاق.

وفيه ركز الإمام عليه السلام على إيجاد ما يحقق قضية التبديل خاصة أن الغالب في الناس التشاؤم، وتصعيب الأمور ووضع الموانع، في حين أن التبديل من الحالة الأسوأ إلى الحالة الأحسن هو أمر ممكن، بل أن المتطلع إليها والعامل بها سيكون فرداً منتجاً، وسنؤكد ذلك من خلال نماذج عديدة بعد أن نُرسخ الاعتقاد التام بهذه الصفة، والعمل بمقتضاها، وسنركزها في ثلاث مراحل:

مراحل التفاعل مع صفة التبديل:

١. فأولها [**مرحلة الانفتاح**]، والاعتقاد بالصفة، حتى يرتقي الأفراد إلى مستوى التفكير، ورصد القرار من أجل استثمار الطاقات.

فالتبديل إلى الأحسن ضروري، وخاصة حين تتعدد المذاهب الفكرية في سعتها.

٢. وثاني المراحل هو [**التحقق بالصفة**]، بأن يسعى الفرد أن يبدل في نفسه إلى الأحسن، بمعنى أن يكون هو موضوعاً

للتبديل بحيث يخرج من النظرة الضيقة، ومن التفكير السلبي إلى السعة والإيجابية.

٣. وثالث المراحل هو [**العطاء في الخارج**]، وبمعنى أن يتحول الفرد من مكتسب إلى مُكسب، فدوام الاتصال بالصفة يجعله مُكتَسِباً، ودوام العطاء يجعله مُكسباً.

تراكم السلبيات نتيجة حتمية إذا غاب التبديل :

ومن ناحية أخرى لمعرفة أهمية تحريك هذه الصفة لابد من ملاحظة صورة العدم، لأن عدم وجود هذه الفكرة يعني تراكم السلبيات، وهذا يؤدي إلى نشوء حالة من اليأس تعرقل المجتمع.

ولا يغيب أمر هام هنا، وهو أن الله تبارك وتعالى لم يحرم أحداً من التعرض للتبديل مهما ساءَ وضعه، ومهما ساءت الحالة التي يصل إليها، وهذا ما أثبته النص الشريف: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ

ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ ﴾ الفرقان: ٦٨ – ٧٠.

وإذا تأملنا في العوامل التي تؤدي إلى حصول التبديل سيبدأ من اعتقادهم وإيمانهم- فإن البدء من الاعتقاد والإيمان -، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ مريم: ٦٠، مما يرفع استعدادهم للتوبة والعمل الصالح، وإلا فإن ما ذكر من الذنوب والآثام غليظ وكثيف، فقد ذكر الشرك، وقتل النفس المحترمة، والزنا، وهي أمور في غاية الخطورة.

ولتكفير هكذا كبائر قد لا تكفي الأعمال الكثيرة مهما كانت صالحة، لذا أكد الباري على الإيمان والهداية.

بل أن الاهتداء المقصود هنا بحكم مناسبة الحكم والموضوع له مجاله الخاص، وعلى هذا فإن الاهتداء إلى من يحملون مفاتيح هذا التبديل من أهم العوامل.

بل أن العقل يقودنا إلى أهمية هذا الأمر، فإن الله تعالى هو المبدل، لكن التبديل له عوامل متعددة، وليس محصوراً في العمل الصالح، وسنبين لاحقاً بعض النماذج التي تثبت ذلك.

ويزداد الأمل بحكم الأولوية:

وإذا كان باب الباري جل وعلا قد فتح الفرصة لأهل المعاصي الكبيرة، فمن باب أولى أن تكون الفرصة أكبر للفئات الأحسن، وكذا تكون أقرب لمن هم أحسن طاعة.

وعلى هذا فإن الفئات الأحسن عليهم دور أكبر، وعلى الرساليين وخَدَمَة الدين والمجتمع، أن يرتقوا أكثر، وأن لا يكتفوا بأن يكونوا موضوعاً للتبديل، بل عليهم أن يكونوا مبدلين فاعلين، وأن يتدرجوا أكثر؛ ليكونوا مصاديق للآية الشريفة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ – ٣٥.

ولا شك أن النتيجة في غاية الاعتبار إذا كان الأمر يؤدي إلى التبدل من حالة العداوة إلى الولاية الحميمة، فهذا تأسيس قوي في المجتمع وظهور جيد لهذه القيم.

وفي دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام تفاصيل في قضايا التبديل، على أنها تحقق مراتب التفاعل: فتارة تحقق قوة الاتصال للبناء، وأخرى التخلق، والتحقق بها مقدمة للعطاء.

ولذا ركز الإمام عليه السلام في بداية الدعاء على القصد والنية، والارتقاء في مراتبها، وكلها مصداق لتحقيق الغرض، فقال: « **وانتهِ بنيتي إلى أحسن النيات** »، ثم قال عليه السلام: « **ووفر بلطفك نيتي** »، ثم قال عليه السلام: « **ونية رشدٍ لا أشك فيها** ».

وليس ذاك إلا ليكون البناء محكما إذا أصبحت النية بهذه المثابة، فإن النية هي القصد الأحسن الموفور باللطف والرشد، وهذا يؤدي إلى العمل الأحسن. ولذا قال عليه السلام: « **وبعملي إلى أحسن الأعمال** ».

ثم يرتقي عليه السلام في بيان وملاحظة القضية؛ للحفاظ على مرحلة الثبات، فقال عليه السلام : « **ووفقني إذا اشتكلت علي الأمور لأهداها، وإذا تناقضت الملل لأرضاها..** ».

وكل هذه تعد لمرحلة أعلى؛ وهو صنع المرشد الاجتماعي المرتكز على هذه الأسس، فقال عليه السلام : « **واجعلني من أهل السداد ومن أدلة الرشاد** »، ثم قال عليه السلام : « **وامنحني حسن الإرشاد** ».

ولا شك أن هذا الإعداد في صنع هكذا أفراد، هو الذي سيؤهل لإعداد قادة في المجتمع، قادرين على تغيير الأوضاع الهابطة، وانتشال المجتمع من الأسواء.

القائِد الاجتماعي:

لا شك أن القائد الاجتماعي أو المرشد، يحتاج إلى وقود جديد ونقلات هامة، لابد أن يؤمن بها ويعمل من أجلها، وقد بينها الإمام عليه السلام فقال: « **وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة، ومن حسد أهل البغي المودة، ومن ظنة أهل الصلاح الثقة، ومن**

عداوة الأدنيين الولاية، ومن خذلان الأقربين النصرة ».

مواقع للتبديل:

وهكذا يتسع كرم الباري من خلال عباده إلى مواقع كثيرة يتحقق بها، وأولها بيت الله الحرام، ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ آل عمران: ٩٧، ومن قصده حصل على الرحمات، وعند بيته في مسجده، وهكذا.

إلا أن ما يناسب إرادة التغيير، والتبديل كأمور تأسيسية نجده في قضية اهتمت بها الشريعة الإسلامية، ووضعت لها هيئات تنظمها لما لها من أثر، وأعني بذلك (الوقف).

وبغض النظر عن الواقع الحالي في توجيه هذه الأوقاف لاستثمارها، إذ أن الأمر يحتاج إلى بذل جهود من الجهات الشرعية والتنفيذية، وكذلك التوجيهية، إلا أن هذه القضية في ذاتها أمر محمود وتأسيسي، ولنرى أهمية ذلك أعطي مثالا واحداً.

[موسى بن الخزرج] له دور تأسيسي كبير:

[موسى بن الخزرج] شخصية لها دور كبير، وذلك عندما قام ببعض الأمور وأهمها:

أن أعد داره في قم للسيدة فاطمة بنت الإمام الكاظم عليه السلام، وأخت الإمام الرضا عليه السلام وخصص لها داراً فيه سميت [**بيت الأنوار**] كانت كهفاً لعبادتها.

ثم اقتطع من بستانه وقفاً لقبرها الشريف؛ لتصبح تلك القطعة الموقوفة ملاذاً للعلماء الزائرين، وهكذا فإن الأدوار تتكامل، فذاك بالمال وآخر بالفكر وثالث بالوعي.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر

١. **القرآن الكريم**.

٢. **الأربعون حديثاً**، للإمام روح الله الموسوي.

٣. **الآمالي**، للشيخ الصدوق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٤. **بحار الأنوار**، العلامة المجلسي.

٥. **حوار في قناة دبي الثقافية**.

٦. **شهيد الأمة وشهيدها** – السيد الصدر، الشيخ محمد رضا النعماني.

٧. **الصحيفة السجادية**، أدعية الإمام السجاد عليه السلام.

٨. **مفاتيح الجنان**، مجموعة أدعية لأهل البيت عليهم السلام

٩. **نهج البلاغة**، كلمات وخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

المحتوى

الفصل الثالث:

بين رشحات التوحيد

الفصل الرابع:

في طلب الفتوحات

الفصل الخامس:

على ذراع اللطف

تم بحمد الله وعونه

يأتي هذا الكتاب ليؤلف ما أمكنه بين الجانب النظري والعملي للعقائد، وتحرك هذه المسألة والاهتمام بهاكموضوع وكطريق، فإثباتها لازم وتفعيلها مطلوب، وبسطها هو المؤمن لوصولها.

كما أن هذا المطلب لا يقصر التربية على هذا النمط، بل يصفّ جنباً إلى جنب مع أنماط التربية الأخَر؛ بيد أني أرى أهميتها أكثر لما بعد مرحلة الناشئة، ومن جهة أخرى فإنها ترمي إلى رفع الحس عند أهل العلم والمربين نحو هذا النمط من التربية الأم.

وهذا يساهم في تحقيق الثبات والارتقاء فيها وبما يحقق الانتصار للنفس حين تسعى بين العقل النظري والعملي، ثم ليتطاول عنقها باحثة عن أسرار الانتصار هذا، ليتحرك فيما هو أوسع من داخل الذات إلى خارجها، بدءاً من الآثار في النفس، ومن ثم تحرك الآثار فيما هو أوسع، ليتحقق الانتصار للقيم، ومن ثم يؤدي إلى تشكل قوي فيما يترك آثار في أفراد المجتمع.

ولا شك أن ذلك يتطلب الارتكاز على أسس متينة، لابد من إخراجها من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل، ومن مرحلة الثبوت إلى مرحلة الإبراز والظهور، ومن حالة الجمود إلى الحركة النشطة، ومن مرحلة الانتصار إلى أسرار هذا الانتصار.

المؤلف.